التداخل الثقافي في مناطق التماس بين شمال السودان وجنوبه وإمكانيات التكامل الجغرافي بينها: دراسة حالة جنوب ولاية النيل الأبيض

سمير محمد علي الرديسي،
وعبد المحمود علي محمد جهينة،
وإبراهيم آدم جمعة،
والطيب إبراهيم أحمد وادي

Abstract: A survey was conducted among Southern Sudanese in the border area of Jabalain and Hajar Asalaya to verify the hypothesis that their stay there has gained them much of the Arabic culture, which can serve as a base for building future geographic relations between North and South Sudan. The results indicate that the majority of Southerners came to the area under study during the period from 199162% .2010- of them received education in Arabic, which is used by 98% of them as a means of communication. Muslims constitute 60%, without significant difference among age groups; while African Traditional Religion is completely absent among young and old age groups. In fact, adherents of the African Traditional Religion constituted 66.9% before their coming to the area, but they all got converted to Islam. The authors argue that prevalence of Arabic culture among the population under study could be a base for building future geographic relations between North and South Sudan, and to achieve that they proposed a cultural and geographic integration model.

مقدمة

خبرت قارة أفريقيا الكثير من أشكال الصراع العرقي أخذ بعضها طابع المطالبة بالاستقلال العرقي والثقافي كما في نيجيريا وجنوب أفريقيا[١] والبعض الآخر المنافسة على الأرض والثروة والسلطة كما في دارفور.[٢] وقد يحدث الصراع بين المجموعات العرقية المتنافسة[٣] بسبب المعتقدات كما حدث في إثيوبيا خلال العشرين عاماً الماضية.[٤] وعانت الدولة الأفريقية من تنامي الهويات العرقية والإقليمية والدينية بسبب زيادة اندماج أفريقيا في الاقتصاد العالمي، وعجز الدولة التنموية عن توفير الاحتياجات الأساسية للشعوب الأفريقية بسبب انهيار أسواق المواد الخام في منتصف سبعينيات القرن الماضي. وتؤدي مثل هذه الصراعات إلى التدهور الاقتصادي وانهيار مؤسسات الدولة وشيوع ثقافة العنف والفساد في هذه المجتمعات.[٥] ولا يقتصر الصراع العرقي على قارة أفريقيا فقط، بل يوجد أيضاً في البعض من القارات الأخرى، بما فيها القارة الأوربية (البوسنة – الهرسك).[٦]

---

(١) E.G. Irobi (2005) *Ethnic Conflict Management in Africa: A Comparative Case Study of Nigeria and South Africa* (Beyond Intractability, Version IV). Colorado: Beyond Intractability.

(٢) عبده مختار موسى (٢٠٠٩)، دارفور من أزمة دولة إلى صراع القوى العظمى. الدوحة: الدار العربية للعلوم ومركز الجزيرة للدراسات.

(٣) نفس المرجع، ص ٣٥.

(٤) H. Assefa (2011) *Ethnic Conflict in the Horn of Africa: Myth and Reality.* http://unu.edu/unupress/unupbooks/uu12ee/uu12ee06.htm.

(٥) عبد الرحمن حسن حمدي (٢٠٠٢)، دراسات في النظم السياسية الأفريقية، سلسلة الكتب الدراسية. جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد.

(٦) ehow.com (2011) *Ethnic-conflict*.www.ehow.com/list_6927731.

تميز تاريخ السودان الحديث بحدة الصراعات العرقية وكثرتها، ولعل أبرزها الصراع المسلح بين شمال السودان وجنوبه، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ السياسي للبلاد. فقد ارتبط تكوين السودان الحديث بمراحل تكوين الدولة في السودان.وتعتبر مملكة كوش (نحو ٢٢٠٠ ق.م) بمثابة أول دولة سودانية.(٧) وازدهرت الحضارة المروية (من عام ٣٠٠ قبل الميلاد إلى ٣٥٠ ميلادية) ثم تفككت وبقيت نوباتيا التي اعتنق حكامها المسيحية في ٥٨٠م، ثم سقطت في ١٣٢٣م، ومن بعدها علوة بنهاية القرن الخامس عشر، نتيجة للهجرات العربية المتتالية إلى السودان، وانفتح الباب أمام العرب والمستعربين لتأسيس الممالك والسلطنات الإسلامية.(٨) وفيما يتعلق بوحدة أقاليم السودان، لم تتمكن الممالك الإسلامية التي بسطت نفوذها على كل هذه الأقاليم، من تحقيقها، إذ كانت عبارة عن اتحاد فضفاض يشتمل على عشرات المشيخات التي يحكمها زعماء القبائل، فمملكة الفونج التي حكمت نحو ثلاثمائة سنة ظلت بعض أقاليم السودان الحالي بسكانها خارج نفوذها. وانتهى عهد الممالك الإسلامية في السودان بتأسيس الحكم المصري التركي في ١٨٢١ الذي استمر ستين عاماً، نجح خلالها في توحيد أقاليم السودان الحالية وإخضاعها لحكم مركزي، وأدخل أنظمة جديدة في إدارة الاقتصاد والمجتمع، وربط أقاليم السودان معاً وبالعالم الخارجي. أعقب ذلك فترة المهدية (١٨٨٣-١٨٩٨م) التي لم تفلح في فرض كامل سلطانها على جميع أجزاء السودان.

احتل البلجيكيون في عام ١٨٩٢م منطقة الاستوائية الغربية حتى منقلا وأسسوا منطقة اللادو كجزء من الكنغو البلجيكي. وخلال نفس العام احتل الفرنسيون أجزاء

(٧) يوسف مختار الأمين (٢٠٠٣)، "الموروث الثقافي السوداني، تحديات الوحدة الوطنية والانتماء الإقليمي"، بحث قدم في ندوة العالم العربي وأفريقيا: تحديات الحاضر والمستقبل، الرباط ١٥-١٧ أكتوبر ٢٠٠٣م، ص ٤.
(٨) نفس المرجع.

كبيرة من بحر الغزال وغرب أعالي النيل حتى فشودة، وأسسوا بحلول عام ١٨٩٦م إدارة قوية في هذه المناطق. وفي عام ١٨٩٧م فشلت الحملة الفرنسية المتحركة من جيبوتي عبر إثيوبيا في أن تتصل مع حملة فشودة. وأراد الفرنسيون بتحركاتهم هذه أن يوصلوا بين جنوب السودان والمستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا، مما أدى إلى صراع دولي بين البريطانيين والفرنسيين حول جنوب السودان عرف بمسألة فشودة. وفي ١٨٩٨م أحتل البريطانيون والمصريون السودان وتم توقيع اتفاقية الحكم الثنائي لحكم السودان بحدوده الحالية. وعقد البريطانيون والفرنسيون اتفاقاً أخرج الفرنسيين من جنوب السودان مسلمّين الجزء الذي احتلوه للحكم الثنائي. وفي عام ١٩١٠م انسحب البلجيكيون من اللادو وبذلك أصبح جنوب السودان تابعاً للبريطانيين.

أسس البريطانيون سياسة الفصل الإداري البريطانية (١٨٩٨-١٩٤٧م) بين الشمال والجنوب بحجة وجود اختلافات جغرافية وسياسية وتاريخية وثقافية بينهما. ولضمان فاعلية هذه السياسة أصدر البريطانيون قانون المناطق المقفولة في ١٩٢٠م وقانون الجوازات والإذن المروري في عام ١٩٢٢م، بحيث يستخدم المسافرون بين الشمال والجنوب الجوازات والإذن المروري وتحديد الغرض من الزيارة. ثم أصدروا قانون الإذن والتجارة في ١٩٢٥م الذي يتحتم بموجبه على السودانيين الشماليين الحصول عليه لممارسة التجارة في جنوب السودان. وأخيراً تم استحداث ودعم سياسة اللغة في جنوب السودان في ١٩٢٨م التي تبنت اللغة الإنجليزية لغة رسمية وصادقت على استخدام اللغات المحلية للقبائل ومنعت استخدام اللغة العربية.

لقد اقترن التأثير التراكمي لهذه القوانين في إبقاء جنوب السودان منفصلاً عن شماله. ودرج الحكام المستعمرون لجنوب السودان على حضور المؤتمرات في شرق أفريقيا بدلاً عن الخرطوم. وبعد إنشاء مؤسسات الحكم الثنائي استمر البريطانيون

في تقوية وضعهم في شمال السودان بخلق البنيات الإدارية والسياسية الضرورية. وفي مسعاهم لتجهيزه للحكم الذاتي سنّوا قانون المجلس الاستشاري لشمال السودان في ١٩٤٣م والذي غطى المحافظات الشمالية الست: الخرطوم، كردفان، دارفور، الشرقية، الشمالية والنيل الأزرق. وكان جميع أعضاء المجلس شماليين وليس له أي مرجعية لجنوب السودان. وبدلاً عن إنشاء مجلس استشاري لجنوب السودان أسوة بشماله أيدت مقررات المؤتمر الإداري لإداريي شمال السودان، والذي عقد في الخرطوم في عام ١٩٤٨، تبعية جنوب السودان إلى شماله. ولم يحضر هذا المؤتمر الإداريون البريطانيون في جنوب السودان. وختم البريطانيون سياساتهم نحو جنوب السودان بمؤتمر جوبا في عام ١٩٤٧ الذي أقر تبعية الجنوب إلى الشمال وتوج هذا القرار بإنشاء التجمع القانوني السوداني في ١٩٤٨م، حيث أرغم ثلاثة عشر مفاوضاً جنوبياً لتمثيل الجنوب في هذا التجمع.[٩] ولم يكن مؤتمر القاهرة عام ١٩٥٣م استثناءً. وسبق أن فكر البريطانيون في ضم جنوب السودان إلى يوغندا أو كينيا، إلا أن الحكام البريطانيين لتلك المستعمرات البريطانية رفضوا بحجة أنه سيزيد الأعباء عليهم وخاصة الجوانب العرقية التي تميز جنوب السودان وهذه المستعمرات.

ثار الجنوبيون على السلطة في شمال السودان في ١٩٥٥م قبل استقلاله في ١٩٥٦م. واستمر الاحتراب حتى توقيع اتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢م التي أقرت الجنوب إقليماً واحداً. وساد السلام حتى عام ١٩٨٣م عندما قسم الجنوب إلى ثلاثة أقاليم وأُعلن تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية. واستمر الصراع المسلح بين الحكومة

(٩) R.T.D. Machar (1995) "South Sudan: A history of political domination - A case of self-determination". *Ben.Parker@dha.sasa.unep.no (Ben Parker) Subject: document Message-Id: c51_9511191041@sasa.unep.no*.

والحركة الشعبية لتحرير السودان بجناحيها العسكري والسياسي ونتج عنه موت مليوني شخص بسبب المجاعة والمرض والحرب ونزوح أربعة ملايين شخص أثناء فترة الحرب.[١٠] وانتهت الحرب بتوقيع اتفاقية نيفاشا في عام ٢٠٠٥م التي من ضمن بنودها حق تقرير المصير أو الوحدة بين شمال السودان وجنوبه، على أن يُجرى استفتاء حق تقرير المصير في فبراير ٢٠١١م. وأُجري الاستفتاء وأسفر عن فصل جنوب السودان عن شماله في السابع من فبراير عام ٢٠١١ بفترة انتقالية تنتهي في التاسع من يوليو، يصبح جنوب السودان بعدها دولة مستقلة.

إن أهم ما ميّز علاقة الشمال والجنوب عقب الاستقلال وفق رأي مشار[١١] هو التهميش السياسي والتمييز والقيود المختلفة التي لم تسمح للسودانيين الجنوبيين بتولي المناصب الدستورية. والتأخير والتخلف وتجاهل التنمية الاقتصادية – الاجتماعية والإخضاع الثقافي عبر خديعة الثقافة العربية والقيم الإسلامية، في محاولة لطمس الثقافة والتراث الأفريقيين لسكان جنوب السودان. كما اعتبرت الصفوة السياسية الشمالية المواطنة السودانية بمثابة انتقال إلى الاندماج الكلي في الهوية العربية،[١٢] رغم أن السودان فيه تنوع عرقي وثقافي واضح حيث يوجد حوالي ٢٠٠ مجموعة عرقية تتحدث أكثر من ٩٠٠ لغة ولهجة. ولقد ذابت بعض المجموعات اللغوية عن طريق التكيف وأخرى بسبب الصراع والتأثير القوي للثقافة العربية وخاصة في شمال السودان .[١٣]

(١٠) U.S. Committee for Refugees (2001) "Sudan: Nearly 2 million dead as a result of the world's longest running civil war". U.S. Archived on the Internet Archive.

(١١) R.T.D. Machar (1995). op. cit.

(١٢) Ibid.

(١٣) The Library of Congress (2011) A Country Study: Sudan. CIA World Factbook Sudan.

طغت مفاهيم الهوية الثقافية والعرقية وغيرها من المصطلحات ذات الصلة بالخصائص الثقافية للمجتمعات على طبيعة العلاقة بين الشمال والجنوب، وسبق أن اتخذها البريطانيون ذريعة لسن قوانينهم الخاصة لفصل الجنوب عن الشمال. ولهذه المصطلحات معانيها في الجغرافيا الثقافية. فاللغة السائدة تحدد خصائص الهوية الثقافية. والثقافة هي القيم والأعراف واللغة والأدوات والمنتجات المشتركة للمجتمع التي توفر خطة للحياة الاجتماعية. وتوفر الثقافة استمرارية النظام الاجتماعي وتسمح للناس بالاستفادة من انجازات الأجيال السابقة.(١٤) وتعرّف الهوية بأنها مجموعة الخصائص السلوكية أو الشخصية التي عن طريقها يعرف الفرد أنه عضو منتم إلى مجموعة محددة، أو أنها النمط الجمعي لمجموعة الخصائص التي يعرّف بواسطتها شيء ما.(١٥) أما التطبع الثقافي فهو تبادل المظاهر الثقافية التي تنتج عن احتكاك مجموعات من الأفراد ذوات خلفيات ثقافية مختلفة مع بعضها بحيث تتغير الأنماط الثقافية الأصلية لإحدى المجموعتين أو لكلتيهما.(١٦) وتبدأ آثار التطبع الثقافي في الظهور بعد أن يُمضي المهاجرون فترة قصيرة من الزمن في مكان غريب عليهم، حيث يلتقطون ذخيرة من الكلمات الخاصة بالمنطقة التي يعيشون فيها خاصة إذا كانت اللغتان من نفس العائلة. أما التطبع الثقافي التفاعلي فهو مزيج من النظريات التي تحاول توضيح عملية التطبع الثقافي من خلال أطر عمل سياسات الدولة والأدوار المتداخلة الديناميكية للمجتمع المضيف واتجاهات التطبع الثقافي للمهاجرين. ويحدث

(١٤) Sociologyguide (2011) questions- culture.php. www.sociologyguide.com.

(١٥) The Free Dictionary (2011) Ethnicity. http://www.audioenglish.net/dictionary/ethnicity. htm.2011.

(١٦) C.P. Kottak, (2005) *Windows on Humanity*. New York: McGraw Hill, pp. 209, 423.

التحول الثقافي (Transculturation) في مدى قصير وبالقليل من الآثار المرئية في الجيل الأول من المهاجرين، وتختلف سرعته بالاعتماد على اهتمام المستقبلين ووجود الدافعية. أما الاستيلاء الثقافي فهو تبني مجموعة ثقافية بعض العناصر المحددة من أحدى الثقافات بحيث يتضمن إدخال بعض أشكال الملبس، الزينة الشخصية، الموسيقى والفن والديانة واللغة أو السلوك. يحدث التطبيع الاجتماعي عن طريق التعليم والتكييف والابتداع والأفكار الحديثة. وتعتبر الأسرة ومجموعة القرناء والتلفاز والمدارس بمثابة أدوات التطبيع الاجتماعي المعاصرة. وتعرّف العرقية بأنها الانتماء لعضوية في مجموعة قد تكون مجموعة عرقية أو قومية أو ثقافية معينة والتقيد بعاداتها ومعتقداتها ولغتها.[١٧] ويعتمد تعريف المجموعات العرقية وحدودها على كيفية إدراك أولئك المنتمين لتلك العضوية لأنفسهم وللآخرين. وقد تستخدم اللغة والسمات الثقافية، وسلسلة النسب العامة كوسم للهوية العرقية، ولكنها ليست دوماً تعرّف المجموعات العرقية من البشر. تتميز الرابطة العرقية في أفريقيا عما عداها من روابط اجتماعية في كونها وراثية وليست مكتسبة، تعبر عن مصير محتوم للفرد بحكم الميلاد وتتميز بمشاركة أفرادها في جملة من القيم والمعتقدات يتم التعبير عنها بشكل مؤسسي، ويمكن أن تتلاءم مع المواقف والسياقات المتنوعة والمعقدة بحكم ما تنطوي عليه من ولاءات فرعية متعددة.[١٨] وتوجد عدّة مذاهب فلسفية تشمل الأصولية والجوهرية والتواتر والبنائية والحداثة يستخدمها علماء الاجتماع لفهم طبيعة العرقية كعامل مؤثر في حياة الإنسان والمجتمع. ويحدث التمييز الثقافي العرقي عندما ينبني افتراض للدونية تجاه أحد الأعراق أو أكثر في ثقافة أحد المجتمعات. وبهذه الوجهة

(١٧) Sociologyguide, *op. cit.*

(١٨) عبد الرحمن حسن حمدي (٢٠٠٢)، مرجع سابق، ص ١٢.

تعتبر العنصرية تعبيراً عن الثقافة وطرق انتقالها عبر التطبيع الاجتماعي.[١٩] ويعتبر التفاوت الاقتصادي التاريخي أو الاجتماعي شكلاً من أشكال التباين الذي تسببه العرقية التي كانت سائدة وممارسة في الماضي، والتي تؤثر على الأجيال الحاضرة عن طريق النقص في التعليم النظامي وفي الأنواع الأخرى من الإعدادات في جيل الآباء وعبر الاتجاهات العنصرية في اللاوعي الاجتماعي والتصرفات من أفراد السكان العموميين.

يرتبط الانتشار الثقافي بمقدرة الثقافات المختلفة على التداخل والاتصال بحرية عبر الحيز الجغرافي. وتستطيع الحواجز الجغرافية مثل الجبال والصحارى أن تحد من عمليات الانتشار المكاني أو تغير في عمليات التداخل والتقارب الثقافي.[٢٠] وتنظر الجغرافيا إلى الهوية بوجه عام على أنها انبثاق من الحراك الاجتماعي وإنتاج وإعادة إنتاج للحيز المكاني. وتقع الخصائص المحددة للكينونة الشخصية ضمن مكون الكينونة القومية.

يهدف هذا البحث إلى إبراز الخصائص الثقافية لبعض مجتمعات جنوب السودان التي تأثرت بالثقافة العربية الإسلامية في مناطق التماس بالتطبيق على منطقتي الجبلين وحجر عسلاية والاستفادة منها في بناء نموذج سمَّاه الباحثون "نموذج التكامل الجغرافي الثقافي بين شمال السودان وجنوبه" واعتباره أساساً للتداخل الجغرافي في المستقبل بين هذه المناطق التي تمتد على طول الحدود بين جنوب السودان وشماله على مسافة ٢٠١٠ كم. ورغم أن اتفاقية نيفاشا عام ٢٠٠٥م قد حددت خط هذه الحدود بالاعتماد على حدود عام ١٩٥٦، إلا أنها لم تستطع أن

(١٩) نفس المرجع.

(٢٠) R. Jack (2010) "Geographic barriers and cultural convergence in an agent based model", *Western Political Science Association Annual Meeting paper*.

تحسم كل التداخلات التي فرضها موروث الحراك الاجتماعي والعرقي داخل البلد الواحد طوال الفترة الماضية، كما لم تستطع إنهاء كل الخلافات القائمة في مجال ترسيم الحدود بين الجانبين، بل خلقت نقاط توتر تهدد التعايش الاجتماعي القائم في مناطق التماس، والتي نجحت الجماعات العرقية والقبائل في المنطقة في تجاوزها على مدى تاريخ طويل من العيش المشترك. وقد أثارت التقسيمات السياسية الجديدة مشكلات ملكية الأرض واستخدامها وحقوق الرعي وتوزيع الجماعات العرقية على خط الحدود.

منهجية جمع وتحليل البيانات

تقع منطقتا الدراسة المتصلتان جغرافياً (شكل ١) في جنوب ولاية النيل الأبيض التي صارت ولاية حدودية بعد انفصال جنوب السودان. وتقع مدينة الجبلين على جانبي طريق كوستي – الرنك القاري الذي سيصل إلى مدينة جوبا، عاصمة دولة جنوب السودان، ثم يمتد ليصل إلى جنوب أفريقيا، وهو مربوط مسبقاً بوسط السودان وشماله. ومدينة الجبلين من المدن الإدارية القديمة في السودان أنشأها البريطانيون أثناء سنيّ حكمهم السودان واتخذوها مركزاً إدارياً لتنفيذ قوانين المناطق المقفولة والإذن المروري وقانون التجارة. وأصبحت منطقة الجبلين ملجأً للجنوبيين الفارين من الصراع المسلح بين الشمال والجنوب في فتراته المختلفة، وخاصة فترة التسعينيات من القرن الماضي. ويوجد حيّ سكني يخصهم في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة أُجري فيه العمل الميداني. أما منطقة حجر عسلاية، فتقع شمال مدينة ربك ويقوم فيها مشروع سكر حجر عسلاية الذي جذب العمال الدائمين والموسميين من غرب السودان وجنوبه وبعضهم من غرب أفريقيا. وقد اتخذ المواطنون من جنوب السودان قرى ثابتة تسمى القرية منها «كمبو»، وهو مصطلح يطلق على جميع أنواع سكن

العمال الوافدين للعمل في المشاريع الزراعية في وسط السودان. وقد أُجري المسح الميداني في إحدى هذه القرى التابعة للمشروع.

أُجري المسح الميداني في الفترة من ١٢-١٤ أغسطس ٢٠١٠م واختيرت عينتان غير احتماليتين بلغ حجمهما ٥٤ مفردة في المنطقتين. لقد صعب في البداية تقدير نسبة حجم العينة من جموع السكان لغياب البيانات الإحصائية، ولذلك عمل الباحثون على تقدير عدد المنازل في المنطقتين بالسير عبر شوارعهما وعدّ المنازل ثم تقدير النسبة الأقرب لحجم العينة. وفي منطقة الجبلين قدّر عدد المنازل بحوالي ٢٠٠ منزلٍ وبلغ مجموع الاستبيانات الناجحة من المجموع الكلي ٢٥ استبانة تمثل ١٢،٥٪ من مجموع الأسر. أما في منطقة حجر عسلاية فقد قدر عدد المنازل بحوالي ٢٥٠ منزلا وبلغ مجموع الاستبيانات الناجحة ٢٩ استبانة تمثل ١١،٦٪ من مجموع الأسر. وفي كلتا الحالتين تعتبر العينة ممثلة للسكان وفق أسس اختيار العينة إحصائياً في المجتمعات المتجانسة من حيث العرق والمستوى التعليمي والدخل وغيره كما هو حال سكان هاتين المنطقتين. وأُجريت المقابلة الشخصية للمبحوثين أثناء زمن العمل الميداني، وتضمنت رؤوس الأسر من الرجال والنساء. ولم توجد مشاكل في التواصل مع المبحوثين فالجميع يتحدثون اللغة العربية.

اشتملت أسئلة البحث على خصائص السكان الديمغرافية وخصائص الهوية مثل اللغة والديانة والتغيرات الطارئة عليها، إضافة للجوانب الاجتماعية مثل المشاركات في المناسبات الاجتماعية واتجاهات المجتمع نحو الوحدة أو الانفصال. وفرغت البيانات وفق المجموعات العمرية للمبحوثين لمعرفة خصائص الهوية السائدة بغرض الارتكاز عليها للمجادلة كأساس للتكامل المستقبلي بين الدولتين. وتمت المعالجة الإحصائية وفق متغيرات الدراسة وحسبت النسب المئوية وأُبرزت في شكل جداول، وتتبع التغير في خصائص الهوية وفق المجموعات العمرية المختلفة لإبراز أوجه الاختلاف

بينها. واستخدم البحث مصطلح إقليم لتحديد الأبعاد الجغرافية لمجتمع الدراسة حيث يقسم السودانيون بلادهم إلى أقاليم يحفظونها خريطة في أذهانهم (mental map)، وهي الشمال والجنوب والشرق والغرب والوسط. وتشمل هذه التقسيمات الذهنية الوحدات الإدارية المسماة ولايات.

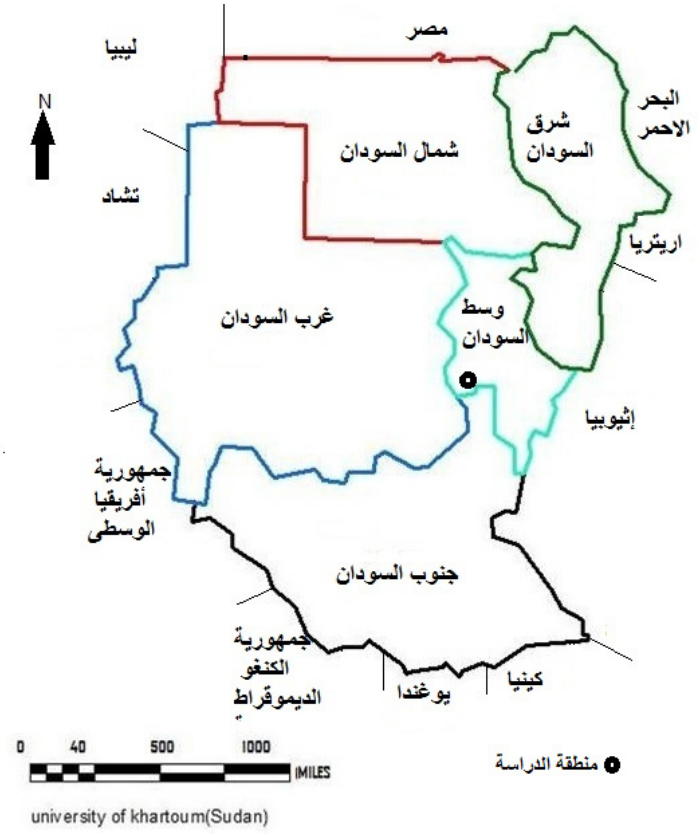

شكل (١): موقع السودان بالنسبة للأقطار المجاورة
وأقاليمه الرئيسة وموقع منطقة الدراسة

اعتمد بناء نموذج التكامل المكاني بين الشمال والجنوب، مستفيداً من نتائج البحث الميداني، على القانون الأول للجغرافيا عند توبلر الذي يقول "إن الأشياء القريبة من بعضها البعض تتشابه كثيراً"، وعلى مفاهيم الاتصال المكاني في الجغرافيا. وتضم هذه المفاهيم مفهوم الإقليم الوظيفي الذي يقوم على مبدأ الارتباطات المكانية وهي شبكة من الارتباطات الداخلية التي تعطي الإقليم وحدته. وتمتلك مركزاً يقدم وظائف معينة لمنطقة ما مثل الوظائف الحكومية أو التعليمية أو التجارية وغيرها. ويرتبط مفهوم الإقليم الوظيفي بمفهوم النظام المكاني الذي يتكون من منظومة من الأقاليم المحددة التي تعتمد على التداخل الوظيفي بينها، مثل المدينة التي تتبع لها الضواحي والأراضي الزراعية المحيطة بها بقدر نفوذها. ويشير مفهوم الإقليم الشكلي إلى مجموعة من الأقاليم ذات التجانس الداخلي الذي يمكن قياسه. ويعبر مفهوم إمكانية الوصول إلى التغلب على عامل المسافة "تآكل المسافة". أما مفهوما الرابط المادي وغير المادي للأماكن فهما الوسيلتان اللتان بواسطتهما تتصل الأماكن معاً عن طريق خطوط التلفون والطرق والأنهار واللغة والأسر. ويشير مفهوم الشبكات الجغرافية إلى الطرق التي تربط الأماكن ببعضها عبر التدفقات البنيوية والقنوات المختلفة. ويعبّر مفهوم الانتشار المكاني عن انتشار الأفكار من النقاط المركزية لتعم ما حولها من مناطق جغرافية. أما مفهوم العولمة فيعبّر عن التدخل الذي يحدث بين الأفراد والمجتمعات في مناحي الثقافة والسياسة والاقتصاد وجودة البيئة على المستوى العالمي.

النتائج

١- الخصائص الديمغرافية

يقطن منطقتي الجبلين وحجر عسلاية عدّة قبائل محلية تشمل كنانة والحسانية والتعايشة وغيرها، إضافة إلى بعض القبائل الوافدة التي ترجع أصولها إلى جنوب السودان وغربه. كما توجد بعض القبائل من شمال السودان بنسب قليلة. ويمارس

الرجال والنساء مهناً ترتبط بالأعمال الزراعية وصيد الأسماك، ويمارس الرجال أعمالاً في المدن الكبيرة مثل أعمال البناء. بلغ متوسط الدخل الشهري حوالي ٢٠٠ جنيه سوداني، أي ما يعادل ٦٠ دولاراً أمريكياً تقريباً بواقع دولارين في اليوم، وهو دخل في مستوى خط الفقر العام في السودان.

الشكل (٢) الهرم السكاني (العمر والنوع) للسودانيين الجنوبيون في منطقة الجليين وحجر

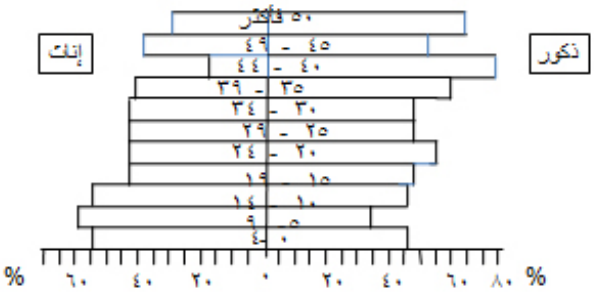

المصدر: العمل الميداني ٢٠١٠

تشير الخصائص الديمغرافية إلى أن متوسط حجم الأسرة يبلغ ٦ أفراد. وتصل نسبة الذكور إلى ٥٣،٨ ٪ والإناث إلى ٤٦،٢٪ من مجمل المجتمع. يلاحظ من الهرم السكاني لمجتمع الدراسة (الشكل ٢) غلبة نسبة الإناث على الذكور في الفئات العمرية الثلاث الأولى (٠-٤،٥-٩، ١٠-١٤) ثم يتساوى النوعان في الفئة العمرية الرابعة ١٥-١٩ ثم ينقلب الوضع بغلبة نسبة الذكور على الإناث في كل المجموعات العمرية وخاصة المجموعتين العمريتين ٤٠-٤٤ وخمسين عاماً فأكثر، عدا المجموعة العمرية ٣٥-٣٩ حيث يغلب الإناث على الذكور. وتطغى نسبة الذكور في المجموعة العمرية ٤٠-٤٤ على جميع المجموعات العمرية حيث لا تماثلها مجموعة أخرى. ولهذا دلالته من حيث الهجرة ومكان الميلاد وغيرها من خصائص المجتمع الديمغرافية.

ويساعد تحديد مكان الميلاد وتاريخ القدوم إلى المنطقة في فهم خصائص التركيبة العمرية – النوعية لمجتمع الدراسة (جدول ١). فقد ولد أغلب أفراد المجتمع في وسط السودان ثم في جنوبه، وأقلهم في شماله، ويكثر المولدون في وسط السودان وسط الفئة العمرية ٤-١٤، تليها الفئة العمرية الثانية (١٥-٢٩) التي تقارب في نسبتها أولئك المولودين في جنوب السودان من نفس الفئة العمرية، ولكنها تفرق كثيراً عن أولئك المولودين في شمال السودان وغربه. ويغلب على الفئة العمرية ثلاثين عاماً فأكثر أنهم ولدوا في جنوب السودان. ويلاحظ غياب المولودين في شرق السودان في كل المجموعات العمرية. وتعكس خصائص مكان الميلاد كلاً من حركة السكان والهجرة المعبر عنهما بتاريخ الوصول إلى المنطقة.

جدول (١): مكان الميلاد وتاريخ الوصول إلى شمال السودان
وسط السودانيين الجنوبيين في منطقتي الجبلين وحجر عسلاية (٪)

الفئات العمرية	مكان الميلاد في السودان					تاريخ الوصول إلى شمال السودان					
	شمال	وسط	غرب	جنوب	شرق	١٩٥٠-١٩٧٠	١٩٧١-١٩٩٠	١٩٩١-٢٠١٠	مولودون في الشمال	غير معروف	دون إجابة
٤-١٤	١	٧٥	١	٢٣	٠	٠	٠	٤٠	٤٩	٥	٦
١٥-٢٩	٣	٤٩	٦	٤٢	٠	٠	١٢	٤٢	٣١	٨	٧
٣٠ فأكثر	٠	٢٦	١٢	٦٢	٠	١٧	٣٦	٣٢	٥	٣	٧
متوسط النسبة	١،٣	٥٠،٠	٦،٣	٤٢،٤	٠	٥،٦	١٧،٠	٣٧،٠	٢٨،٣	٥،٣	٦،٦

ويتضح من الجدول (١) أن أغلب أفراد المجتمع تحت الدراسة قد وصلوا إلى منطقتي الجبلين وحجر عسلاية في الفترة بين ١٩٩١-٢٠١٠م. ولكن شهدت الفترة بين ١٩٧١- ١٩٩٠م أيضاً مجيء نسبة مقدرة من الجنوبيين إلى منطقة الدراسة. ويبين تاريخ الوصول إلى منطقة الدراسة وفق المجموعات العمرية أن الفئة العمرية ٣٠

عاماً فأكثر يشكلون النسبة الأكبر بين الذين وصلوا في الفترة بين ١٩٥٠–١٩٧٠م وهو ما لا تظهره الإحصاءات الخاصة بالمجموعتين العمريتين ٤–١٤ و ١٥–٢٩. أما الفئة العمرية ١٥–٢٩ عاماً فقد وصل أغلب أفرادها في الفترة بين ١٩٩٠–٢٠١٠م. وفي الفئة العمرية ٣٠ عاماً فأكثر، يقارب الذين وصلوا في الفترتين ١٩٧١–١٩٩٠ و١٩٩١–٢٠١٠ بعضهم بعضاً بفارق ٤٪ فقط. أما فئة صغار السن فأغلبهم قد ولد في شمال السودان ولكن هناك نسبة مقدرة منهم (٤٠٪) قد وصلوا مع ذويهم في الفترة بين ١٩٩١–٢٠١٠م وهم في الغالب صغيرو السن. ويلعب العمر دوراً مهماً في هذه الفروق، وبحكم أن فئة صغار السن يتبعون أهلهم فقد انعكس ذلك على نسبتهم المشار لها في الجدول (١). وهناك قلة منهم لم يحددوا فترة مجيئهم إلى منطقة الدراسة.

٢- خصائص الهوية

يشكل التعليم في المدارس السودانية التي تدرّس علومها باللغة العربية نوع التعليم السائد وسط مجتمع الدراسة، ويساهم التعليم في المدارس الأجنبية (التعليم الكنسي) بنسبة قليلة ولا يعدّ إلا رافداً شحيحاً لقلة منهم (جدول ٢). على أن هناك نسبة مقدرة من هذا المجتمع لم يذهب أفرادها إلى المدارس قط، وخاصة في الفئة العمرية ثلاثين عاماً فأكثر. وتسود اللغة العربية وسطهم لغة للتواصل (٩٨٪) مع القبائل المحلية وفي معاملات الحياة اليومية ويندر من لا يتحدث اللغة العربية وسطهم. وحتى في جنوب السودان تعتبر اللغة العربية هي لغة التواصل بين القبائل المختلفة. ويسود الدين الإسلامي هذا المجتمع بنسبة عالية وسط المجموعات العمرية المختلفة بنسبة لا يظهر بينها تفاوت ملحوظ. وللديانة المسيحية سيادة أيضاً وبنسب متساوية بين الفئات العمرية للمجتمع، وتشكل الوثنية غياباً تاماً وسط صغار السن وكبارها، وإن كانت هناك نسبة ضئيلة جداً من مجتمع الدراسة يعتنقها في الفئة العمرية ٢٥–٢٩.

جدول (٢): نوع المدارس والتحدث باللغة العربية
وخصائص الديانة وسط مجتمع الدراسة (٪)

الفئات العمرية	نوع المدارس			التحدث باللغة العربية		الديانة الحالية				الديانة السابقة			
	عربية	أجنبية	أميون	يتحدثونها	لا يتحدثونها	إسلام	مسيحية	وثنية	دون إجابة	إسلام	مسيحية	وثنية	دون إجابة
١٤-٤	٧٧	٩	٢٢	٩٨	٢	٥٩،٨	٣٢،٦	صفر	٧،٦	٣٠،٤	١٥،٢	٤٨،٩	٥،٥
٢٩-١٥	٦٧	٨	٢٥	٩٩	١	٦٠،٢	٣٦،٢	١،٨	١،٨	١٤،٨	٦،٢	٧٨،٧	٠،٩
٣٠ فأكثر	٤٤	٧	٤٠	٩٧	٣	٦٢،٥	٣٦،٦	صفر	٠،٩	٩،٨	١٢،٥	٧٣،٢	٣،٥
متوسط النسبة	٦٢،٦	٨،٠	٢٩،٤	٩٨	٢،٠	٦٠،٨	٣٥،١	٠،٦	٣،٤	١٨،٣	١١،٣	٦٦،٩	٣،٣

يظهر تأثير الثقافة العربية الإسلامية في ترك النسبة الغالبة من الوثنيين ديانتهم واعتناقهم الإسلام (الجدول ٢)، وقد انعكس ذلك في ارتفاع نسبة المسلمين وسط الفئات العمرية المختلفة، وخاصة فئة كبار السن والمجموعة العمرية الوسيطة بينهم. كما أفلت شمس الوثنية بانخفاض نسبتها وسطهم، وخاصة المجموعتين العمريتين ١٥-٢٩ و ٣٠ عاماً فأكثر. ويسود مجتمع الدراسة التواصل الاجتماعي وسط أفراده حسب ما يشير ٨٥،٢٪ منهم إلى وجود صلة مع أقاربهم، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة. فهناك نسبة مقدرة منهم تبلغ ٤٨،٢٪ يزورون أهلهم مرة واحدة في العام، وقليل منهم يزورون أهلهم مرتين في العام (١٣٪)، والقليل جداً منهم يزورون أهلهم ثلاث مرات في العام (٥٪)، بينما انقطع قلة قليلة منهم كلياً عن زيارة أهله (٢،٨). ومما يؤكد ذلك، صلة أفراد هذا المجتمع بموطنهم الأصلي، حيث يشير حوالي ربع أفراد مجتمع الدراسة إلى أنه قد زار موطنه الأصلي قبل فترة تتراوح بين ١-٤ سنوات، ونسبة أخرى (١١،٢٪) طال عليها العهد فلم تقم بزيارة موطنها قبل ٥-٩ سنوات.

على أن نسبة مقدرة منهم قد انقطع وصلها بموطنها الأصلي (٢٠،٥٪) فلم تزره منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، بينما النسبة الغالبة أكثر لم تزر موطنها قط (٣٥،٩٪).

ويأخذ التعايش الاجتماعي بين القبائل ذات الأصل الجنوبي وبين القبائل الأخرى أشكالاً إيجابية في المشاركة في المناسبات الاجتماعية (٩٤،٤٪) في المنطقة مثل الزواج والمآتم والزيارات العادية والأنشطة الرياضية (٧٤٪) والنفير الجماعي في الزراعة وبناء المنازل وغيرها (٨٣٪)، والانتماء للأحزاب السياسية الشمالية (٣٧٪). ويبدي كثير منهم (٤٦٪) اهتماماً بالأديان الأخرى وبالمناسبات الدينية المرتبطة بها مثل الأعياد والمولد النبوي الشريف وغيرها. ونظراً لوجود هذه القبائل الجنوبية مع القبائل الأخرى أشار الكثير منهم (٦٣٪) إلى حدوث زواج ومصاهرة بين بعض أفرادها. ولا يوجد أي شكل من أشكال الصراع بين القبائل الجنوبية والقبائل الأخرى غير الجنوبية (٨٣،٣٪) وإن وجد ففي الغالب ترجع أسبابه إلى التنافس في فرص العمل (٢٥٪) وسوء التفاهم (٧٥٪) ويتم حله بواسطة الشيوخ والسلاطين (٨٧،٥٪) وقليل يلجأ إلى المحاكم (١٢،٥٪). ويتوقع كثير منهم (٨٧٪) مستقبلاً جيداً بين القبائل المتعايشة في منطقة الدراسة.

٣- اتجاهات المجتمع نحو الوحدة أو الانفصال

تأخذ اتجاهات أفراد مجتمع الدراسة نحو الوحدة أو الانفصال أشكالاً عدّة. فنصف أفراد المجتمع لا يرغب في العودة إلى جنوب السودان إن كانت نتيجة الاستفتاء حول مصير جنوب السودان لصالح الانفصال، بينما يرغب النصف الآخر في العودة إلى موطنه الأصلي. ويذكر أولئك الذين لا يرغبون في العودة عدّة أسباب يرونها جوهرية تبرر اتجاههم في أنهم مستقرون في الشمال منذ زمن بعيد (٢٩،٦٪) ولتوفر فرص العمل ووجود الأقارب والأصدقاء (٣٧،١٥)، كما أن عدم توفر الخدمات والمشاكل الأمنية في جنوب السودان (١٤،٨٪) من مبررات عدم

رغبتهم في العودة إليه. أما الراغبون في العودة إلى جنوب السودان فيرون أنه موطنهم الأصلي (١٣٪)، وتتوفر فيه فرص العمل وفيه إشباع للنواحي الاجتماعية خاصتهم (٧٣،٨٪)، وترجع قلة منهم (٣،٤٪) عدم توفر الخدمات في منطقة سكناهم الحالية من الأسباب الدافعة لرجوعهم إلى جنوب السودان. على أن ٥٠٪ منهم لا يرون ضرراً إن رجعوا إلى جنوب السودان، بينما يرى ٢٧،٨٪ أن ضرراً سيصيبهم في النواحي الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بفرص العمل، بينما يشير ١٤،٨٪ إلى مخاطر الحرب والصراعات القبلية. وينظر مجتمع الدراسة إلى بعض المكاسب التي ستحققها الوحدة بين شمال السودان وجنوبه، مثل إعمار الجنوب (١١،١٪)، وتحقيق مكاسب اقتصادية واجتماعية (١٨،٥٪)، وتوطيد العلاقات بينهما (١٤،٨٪)، والسلام والأمن (٢٢،٣٪). ويهتم مجتمع الدراسة بمستقبل أبنائه حيث ينظر ١١،٦٪ منهم إلى مستقبل مستقر لهم في حال الانفصال، بينما ترى مجموعة أخرى أكثر غلبة (٢٤،٢٪) أنهم سيكونون عرضة لعدم الاستقرار والضياع وسيفقدون مستقبلهم. ويوازن بينهم آخرون (١١،١٪) في رؤية أن مستقبل أبنائهم لن يتأثر في حال الانفصال أو الوحدة.

مناقشة النتائج

أدى التوسع الزراعي بقيام مشاريع مؤسسة النيل الأبيض الزراعية في ١٩٣٧ وتخصصت في زراعة القطن سابقاً والقمح حاليّاً، ثم قيام مشاريع السكر الكبرى مثل كنانة وحجر عسلاية والنيل الأبيض، إضافة إلى أعمال التجارة في المركزين الحضريين كوستي وربك والمشاريع الزراعية المطرية وغيرها، إلى جذب العمال من مختلف أنحاء السودان، عمالاً دائمين وموسميين. وأدت موجات الجفاف والتصحر إلى نزوح أعداد ضخمة من سكان القطاع المطري في كردفان ودارفور إلى منطقة الدراسة. كما نتج عن الصراعات المسلحة في جنوب السودان نزوح أعداد كبيرة من

الجنوبيين إليها. وللجوار الجغرافي لمنطقة الدراسة مع جنوب السودان دور مؤثر في حركة السكان إليها، كما سهل الميناء النهري الذي يربط بين كوستي وملكال ومرور خط السكة حديد الذي يربط بين وسط السودان ومدينة واو في غرب الاستوائية مروراً بجنوب كردفان، وصلته بمدينة نيالا في دارفور، إلى تسهيل وصول الجنوبيين إلى هذه المناطق واستقرارهم فيها في أحياء سكنية تخصهم تتميز بتجانس النسيج الثقافي الاجتماعي.

يماثل متوسط الدخل لأفراد مجتمع الدراسة المتوسط العام لدخل الفرد السوداني ويتفق مع دراسة وزارة العمل السودانية ومنظمة العمل الدولية في أن ٧٧،٥ ٪ من الأسر في شمال السودان هم عند أو دون خط الفقر.(٢١) كما يتفق هذا مع دراسة برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في أن ٧٥٪ من سكان شمال السودان هم فقراء، يتركز ٨٠٪ منهم في المناطق الريفية ويعاني ٣٠٪ منهم من الفقر المدقع.(٢٢) ويماثل عدد أفراد الأسرة في منطقة الدراسة المتوسط العام للأسرة في السودان حيث ترتفع نسبة الخصوبة عموماً.(٢٣) ويشبه الهرم السكاني لسكان المنطقة بقاعدته العريضة الأهرامات السكانية في دول العالم الثالث التي تتميز بغلبة فئات صغار السن على بقية المجموعات العمرية الأخرى. ولهذه الفروق النوعية دلالاتها الاجتماعية والاقتصادية. فقد اعتاد بعض السودانيين الجنوبيون على الهجرة غير مصاحبين لأسرهم بحثاً عن فرص العمل، بل قد يترك البعض منهم ذويه في جنوب السودان ويأتي للمكوث مع أقاربه في شمال السودان، أو قد يمكث الفرد منهم في مكان مغاير لمكان إقامة أفراد

(٢١) Ministry of Labor (MoL/ILO) (1997) *Trends and Profiles of Poverty in Sudan* (1990-2008). Ministry of Labor and International Labor Organization. Khartoum, p. 10.

(٢٢) UNDP (2005) *Human Development Report*. Oxford: Oxford University Press, p. 17.

(٢٣) Ministry of Finance and Economic Planning (1997) *Sudan Censuses 1983, 1993*. Ministry of Finance and Economic Planning, Khartoum, Sudan.

أسرته في شمال السودان بحثاً عن فرص العمل. ويدل كثرة المولودين في جنوب السودان في الفئة العمرية ثلاثين عاماً فأكثر على موجات الهجرة وظروف الحرب في فترات الصراع المسلح بين شمال السودان وجنوبه. ويدل غياب المولودين في شرق السودان في كل المجموعات العمرية على عامل المسافة والبعد الجغرافي. وتعود الجنوبيون على النزوح إلى المناطق القريبة من بلادهم في ظل توفر فرص العمل في المشاريع الزراعية والحواضر الكبرى في وسط السودان.

إن مجيء أغلب مجتمع الدراسة في الفترة بين ١٩٩١-٢٠١٠م يرتبط باحتدام الصراع المسلح بين شمال السودان وجنوبه عقب مجيء حكومة الإنقاذ الوطني. ولكن مجيء نسبة مقدرة منهم في الفترة بين١٩٧١-١٩٩٠م هو أيضاً انعكاس لجو السلم الذي أعقب اتفاقية السلام بين حكومة جعفر النميري وحركة جوزيف لاقو في عام ١٩٧٢م، وأيضاً للصراع المسلح الذي أعقب إعلان تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية وتقسيم جنوب السودان إلى ثلاثة أقاليم في سبتمبر ١٩٨٣م. ويفسر عدم التحديد الدقيق لفترة مجيء البعض من المبحوثين إلى هذه المنطقة ظروف انتشار الأمية والفقر وعدم إلمام البعض بالتوقيت السنوي وشهور العام. ويدعم هذا الأمر وجود نسبة مقدرة من هذا المجتمع لم يذهب أفرادها إلى المدارس قط وخاصة في الفئة العمرية ثلاثون عاماً فأكثر وهو وضع مرتبط بانتشار الأمية وسط هذه المجموعات العمرية في شتى أرجاء السودان.

كما أسلفنا، إن اللغة العربية تسود وسط أفراد مجتمع الدراسة ويتواصلون عن طريقها مع القبائل المحلية، حيث أنها لغة التواصل بين القبائل المختلفة حتى في جنوب السودان. وقد ابتكر أهل مدينة جوبا لغة عربية خاصة بهم تسمى اصطلاحاً "عربي جوبا". وقد لعب التجار والجيش الحكومي دوراً مقدراً في نشر اللغة العربية في جنوب السودان، كما أن زواج البعض منهم أوجد أناساً يتحدثون لغة آبائهم التي هي

خليط بين اللغة العربية واللهجات المحلية. وترتبط اللغة العربية ارتباطاً وثيقاً بالإسلام. ويظهر تأثير الثقافة العربية الإسلامية في سيادة الديانة الإسلامية وسط هذا المجتمع بنسبة عالية وسط المجموعات العمرية المختلفة بنسبة لا يظهر بينها تفاوت ملحوظ، مما نتج عنه الغياب التام للوثنية وسط صغار وكبار السن. كما يظهر تأثير الثقافة العربية الإسلامية في تحول النسبة الغالبة من الوثنيين بينهم إلى اعتناق الإسلام وتحول هذه المجتمعات إلى اعتناق الديانة الإسلامية هو الغالب كما تظهره نتائج البحث. على أن الضعف التدريجي لتواصل المبحوثين بهذه النسب المقدرة مع مواطنهم الأصلية الذي قد يصل إلى مرحلة الانقطاع الكلي قد يشير إلى التكيف الاجتماعي والثقافي لهؤلاء الأفراد مع مجتمعاتهم الجديدة وضعف الانتماء القبلي، وتغير نمط الحياة وسطهم، وضعف سيطرة القبيلة، وصعوبة التواصل في ظل ظروف الحرب، وارتفاع تكلفة السفر والمعيشة. ولكنها صفة أساسية تميز المهاجرين عموماً، إذ تكون صلة الأجيال الأولى المهاجرة قوية مع أوطانها الأصلية ثم تضعف تدريجياً في الأجيال التالية. ويظهر هذا الجانب مع تقبل هؤلاء المهاجرين للغة العربية واعتناق الإسلام على آثار التطبيع الاجتماعي والثقافي التراكمي. فالاحتكاك بين المجموعات المتباينة ثقافياً وعرقياً يوفر قاعدة للتعارف الاجتماعي الذي قد يزيل كثيراً من الأفكار الخاطئة. ولا يمكن القول هنا بأن سيادة الثقافة العربية الإسلامية في منطقة الدراسة قد أدى إلى الاستيلاء الثقافي لأن الجنوبيين يحتفظون بالكثير من إرثهم الثقافي ويمارسونه في المناسبات الاجتماعية التي تخصهم بل على العكس قد يؤسس هذا الوضع لمفهوم التقارب الثقافي المحلي. ويؤكد على ذلك التعايش الاجتماعي الإيجابي بين القبائل ذات الأصل الجنوبي والقبائل الأخرى من أنحاء السودان، وفي المشاركة في المناسبات الاجتماعية وعدم وجود أي شكل من أشكال الصراع بين القبائل الجنوبية وغيرها من القبائل الأخرى. كما يدعمه أكثر اتجاهات أفراد مجتمع الدراسة نحو الوحدة أو

الانفصال إذ أن المجتمع يتناصف في هذا الاتجاه الذي يحدد مستقبل الدولتين. كما يرى مجتمع الدراسة الكثير من المكاسب التي ستتحقق في حال الوحدة بين شمال السودان وجنوبه.

يمكن القول إن الهوية الثقافية للجنوبيين المقيمين في منطقة الدراسة قد تأثرت نتيجة لـلتطبع الثقافي، حيث حدث تبادل للمظاهر الثقافية نتيجة احتكاكهم مع المجموعات العرقية الأخرى ذات الثقافة العربية الأصل، بحيث تغيرت الأنماط الثقافية الأصلية لهم بسبب سيادة الثقافة العربية التي لا مناص لهم من التطبع بها، لأنها تفرض واقعاً إلزامياً عليهم لتسيير شؤون حياتهم. وبدأت آثار التطبع الثقافي في الظهور بعد أن قضى هؤلاء المهاجرون فترة من الزمن في هذه الأماكن حيث كونوا ذخيرة من الكلمات الخاصة بالمنطقة التي يعيشون فيها. ولقد حدث النقل الثقافي في مدى صغير في الجيل الأول من المهاجرين الجنوبيين، وقد كان صعباً بالنسبة لهم بسبب قلة الأجيال السابقة المهاجرة في الأسرة. وبصفة عامة تعتبر التغيرات التي تطرأ في الخصائص الجمعية للهوية بمثابة قلب التحول الاجتماعي،[٢٤] كما حدث في واحة سيوة التي تأثرت بالغزو الثقافي السنوسي في منتصف القرن التاسع عشر أكثر من الواحات الأخرى بحكم أنه استقر فيها لمدة أطول.[٢٥]

لقد حدث التطبيع الاجتماعي للجنوبيين عن طريق التعليم والتكييف والابتداع والأفكار الحديثة التي وجدوها في المجتمعات الجديدة التي عاشوا وسطها ردحاً من

(٢٤) T. Jennifer (2005) "Social transformation, collective categories, and identity change". *Theory and Society*. Volume 34, Number 4, 429-463, DOI: 10.1007/s11186-005-7963.

(٢٥) عبد الوهاب حنفي (٢٠١٠)، "رياح التغيير والتغير الثقافي في الواحات المصرية دراسة بحثية ميدانية"، مقال منشور في الانترنت ويمكن الرجوع إليه بكتابة نص العنوان.

الزمان. وبالرغم من ذلك يدرك المهاجرون الجنوبيون أنهم مجموعة عرقية تختلف كلياً عن المجموعات السكانية الأخرى الموجودة في المنطقة. ولذلك ظلوا يستخدمون لغتهم وسماتهم الثقافية، وسلسلة النسب العامة كوسم لهويتهم العرقية متفقين مع المنهجية الأصولية في دراسة العرقية. كما أنهم في نفس الوقت يمثلون مجموعات عرقية معاصرة لها استمرارية تاريخية في الماضي البعيد بما يتفق مع فكرة الشعوبية التي يقول بها السياسيون الجنوبيون (شعب جنوب السودان) في وسائل الإعلام المختلفة وفي اللقاءات الجماهيرية التي يقيمونها في الميادين العامة. على أن اكتساب الجنوبيين للثقافة العربية الإسلامية وتغيرهم وتصاهرهم مع القبائل المحلية قد يتفق مع منهجية التواتر بأن العرقية دائما متغيرة، وأن المجموعات العرقية بصورة عامة تعيش فترات قصيرة قبل أن تتبلور الحدود العرقية في أنماط جديدة رغم بقاء مفهوم العرقية في كل الأوقات. وفي نفس الوقت يمكن أن تكون المجتمعات الجنوبية المكتسبة للثقافة العربية الإسلامية منتوجاً للتداخل البشري الاجتماعي الذي حدث في منطقة الدراسة منذ أزمنة بعيدة بما يتفق مع المنهجية البنائية، ومع الرأي بأنها رغم اكتسابها للثقافة العربية ظلت تحتفظ بالسمات الثقافية الأصلية. ويتمشى هذا مع انتشار اللغة العربية وثقافتها في وسط البلاد واضمحلال نفوذها كلما ابتعدنا عن مركز الوسط حيث لا تزال اللغات الأفريقية المحلية تقاوم تيار التعريب مؤكدة قوة الثقافة الأفريقية.[٢٦]

ووفق نظرة الجغرافيا البشرية نرى أن الهوية المكتسبة للجنوبيين في مناطق التماس قد انبثقت من الحراك الاجتماعي مع القبائل في المنطقة وأنها عبارة عن إنتاج وإعادة إنتاج للحيز المكاني. على أن وجود هذه القواعد المشتركة لا ينفي وجود

(٢٦) يوسف فضل حسن (١٩٧٥)، دراسات في تاريخ السودان، الجزء الأول. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

التمييز الثقافي العرقي. ويدرك الجنوبيون نظرة المجتمعات تجاههم في كثير من العبارات والألقاب المستخدمة التي تطلق عليهم، وارتباطهم بممارسة المهن الشاقة التي لا يعدُّها المجتمع راقية في سلم تقييمه للمهن. وقد كان هذا من الدوافع الرئيسة للصراع المسلح بين الشمال والجنوب. ولقد تأثرت الأجيال الحاضرة من الجنوبيين بالتفاوت الاقتصادي التاريخي أو الاجتماعي، ويعتبرونه شكلاً من التباين الذي سببته العرقية في الزمن الماضي عن طريق النقص في التعليم النظامي والأنواع الأخرى من الإعدادات في جيل الآباء وعبر الاتجاهات العنصرية، التي قد تكون موجودة في اللاوعي الاجتماعي والتصرفات من أفراد السكان العموميين[٢٧] وقد يشابه هذا نتائج دراسة الحالة في زيمبابوي (١٩٨٠-١٩٨٩) وجنوب أفريقيا (١٩٩٠-١٩٩٨) حيث تغيرت الاتجاهات بصورة متضاربة عبر الزمان ولوحظت بعض النتائج الايجابية التي تأثرت بالصدق والمغالاة في التوكيد للخضوع لهوية جديدة.[٢٨]

الخاتمة والتوصيات

لقد رأينا مما تقدم أن جنوب السودان قد ضُم للشمال إبان فترة الحكم التركي-المصري، ثم قطع وصله بما فعله البريطانيون بسياساتهم تجاه العلاقة بين شمال السودان وجنوبه. وأدت ظروف الحرب إلى نزوح أعداد كبيرة منهم انتشرت في كل أنحاء السودان، مما أدى للتداخل مع الشماليين وانتقال الثقافة العربية بمكوناتها

(٢٧) W.J. Wilson (1978) *The Declining Significance of Race.*

راجع الموقع الآتي على شبكة الانترنت: http://www.sociologyguide.com/questions/culture.php

(٢٨) F. Florian (2010) "Belligerents and reconciliation in South Africa and Zimbabwe. International peace", paper prepared for presentation at ISA Annual Convention, 17 – 20 February 2010, New Orleans, LA, USA.

المختلفة وسطهم. وخفف ذلك من وطأة سنين الاحتراب وخلق قاعدة جيدة للتعايش السلمي. وفي حالة انفصال الجنوب عن الشمال يمكن أن تكون هذه القاعدة الثقافية التي شيدت نقطة للتعاون بين الدولة الوليدة (الجنوب) والدولة الأم (الشمال). ويرى الباحثون أن المناطق الحدودية بين الدولتين هي ركيزة التداخل الجغرافي لاستكمال البنية الثقافية التي تكونت زمن الحرب. ويتفق هذا مع الرأي القائل إن "تكوين الأمة السودانية بدأ في الإطار الجغرافي الحالي للبلاد منذ بداية دولة كوش القديمة وأن السودانيين الحاليين يغلب في تكوينهم العرقي العنصر الأفريقي. كما أن عمليات التزاوج والانصهار مع العرب الوافدين أنتجت أجيالاً من المستعربين وإن عروبة السودان بالمولد وباللغة والوجدان".[٢٩]

يمكن اعتبار مناطق التماس بين شمال السودان وجنوبه أقاليم وظيفية ذات مراكز حضرية تمتلك محيطاً جغرافياً ويلعب التبادل الوظيفي بين هذه الأقاليم دوراً تكاملياً في تقديم الخدمات التي قد يفتقدها أحدهما. ومثال لذلك إقليما ملكال في جنوب السودان والجبلين في شمال السودان (شكل ٣).

وبالاعتماد على مساحة وأعداد السكان في مناطق التماس يمكن خلق أقاليم وظيفية كبيرة أو متوسطة أو صغيرة. ويمكن تحديد الأقاليم الوظيفية عن طريق تجميع الوحدات المحلية معاً بحيث تخلق درجة معقولة من الاعتمادية المتداخلة. وينصب الاهتمام على عمليات التدفق والانسياب المرتبطة بنقاط التحكم منه على الاعتماد على تجانس الإقليم.

(٢٩) يوسف فضل حسن (١٩٨٨)، "مفهوم الأمة السودانية: منظور تاريخي"، دراسات في الوحدة الوطنية في السودان، تحرير العجب محمد الطريفي. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، ص٤٣.

يمكن أن يؤدي خلق أقاليم وظيفية إلى تفعيل مفهوم المسبب التراكمي حيث ستؤدي بداية التنمية في أي من المراكز داخل هذه الأقاليم لخلق قوة دافعة للنمو غبر عملية المسبب التراكمي. وتساعد أقطاب النمو مثل المشاريع الزراعية والصناعية الموجودة مسبقاً قبل الانفصال في نشر التحديث في التنمية الإقليمية بحيث تكون المراكز الصغيرة أو أقطاب النمو الأساس الذي يجب بناء خطط التنمية المحلية والإقليمية حوله. ولتجنب الآثار السالبة لأقطاب النمو، التي قد تعمل على جذب الموارد المالية والبشرية من محيطها مما يزيد من الفوارق التنموية، يمكن صياغة خطط تنموية مكانية قصيرة المدى تعتمد على المقومات الطبيعية التي تميز كل منطقة عن الأخرى بحيث لا تنفك تحتاج لبعضها البعض مما يقلل من فرص التنمية المكانية غير المتوازنة. وقد يؤدي وجود مثل هذه الأقطاب لتحريك عمليات التداخل الوظيفي بين مناطق التماس في الدولتين. ويتطلب تطبيق مفهوم الحيز المشترك في مناطق التماس تبني منهجية تاريخية تقيّم العمليات التاريخية التي حدثت في السودان والتفكير حولها في إطار التحضر ونشر التحديث بالاعتماد على الفترات التاريخية السابقة أو التالية. وتلعب اللغة دوراً مهماً كرابط غير مادي إذ تشكل أحد الجوانب النفسية للاتصال المكاني. وتتضمن الشبكات الجغرافية بين البلدين التدفقات البنيوية لمشاريع التنمية المشتركة في نواحي استغلال مياه النيل والزراعة المطرية في المناطق التي سبق زراعتها مثل المقينص والرنك وحقول البترول في فلوج وحوض ملوط، كما أن خط أنابيب البترول يمر عبر هذه المنطقة وتوجد محطة معالجة للبترول جنوب مدينة الجبلين حيث يواصل سيره إلى ميناء بشائر في بورتسودان. ويمكن أن تنتشر الأفكار البناءة ضمن أطر الانتشار المكاني باستخدام موروث اللغة العربية التي اكتسبها المهاجرون إلى شمال السودان. وهنا تلعب الأقاليم الوظيفية المقترحة في النموذج دور النقاط المركزية التي تنتشر منها الأفكار عبر المكان بوسائل الإعلام المختلفة. ويمكن للجوار الجغرافي أن

يتغلب على عامل المسافة بين هذين الإقليمين الوظيفيين في الدولتين بحيث تبدأ أطر التلاقي أولاً عند النقاط الجغرافية فيهما، والتي ليس بالضرورة أن تكون مدنا كبيرة بل مراكز تجمعات سكانية قد تكون في مستوى القرية. وهنا يمكن أن تمثل مدينة جودة في الناحية الشمالية ومدينة الرنك في الناحية الجنوبية بداية تلاقي الأماكن الجغرافية بين الدولتين. وتستفيد مثل هذه الأقاليم الوظيفية من الروابط المادية التي تشمل النيل الأبيض الذي يحقق التلاحم المائي، وطريق الجبلين – الرنك – ملكال القاري وشبكة الاتصالات التلفونية العاملة (زين Zain) التي سبق أن أسست بنيتها في جنوب السودان قبل الانفصال، كما أن وجود الأسر التي تقرب لبعضها بالمصاهرة هو أحد أركان الرابط المادي. وهو دور يمكن أن تلعبه العولمة في نشر الأفكار البناءة عبر شبكة الانترنت.

يمكن تطبيق النموذج الذي اقترحه الباحثون على مناطق التماس بين الدولتين مع مراعاة خصوصيات المناطق المتجاورة الجغرافية والسكانية والثقافية. ويمكن لدولتي شمال السودان وجنوبه أن تتبادلا المنافع الجغرافية المشتركة في حال وجود إرث ثقافي مشترك.